ثالثا ـ كان ضيق المسافة الزمنية سلاحا ذا حدين ، فمن جهة اعفى الكاتب من مسألة نمو الشخصيات دراميا ، وقد استعاض عن هذا ببراعة كما رأينا في رصد بداية تحولات هذه الشخصيات خلال الحرب وبعدها ، ومن جهة الزم الكاتب بمستوى من التكثيف لم يلتزم به دائما ، مما جعله يلجأ الى الحوار ، غالبا ،ليعبر عن افكار شخصياته وهمومها ، لقد اكتسح الحوار معظم العمل ، وقد يكون هذا مشروعا لو لم يكن ينوب عن الكثير من المبادرات والتحركات التي من شانها ان تغني العمل فنيا

رابعا ـ على الرغم من حذق الكاتب في استحضار اللقطات التعبيرية التي تحاكي دخائل شخصياته ، فقد كانت هذه اللقطات تنبو عن اماكنها ـ في حالات نادرة جدا ـ لتغدو مجرد محطات جمالية، مثلا لقطة العصفورين المتناجيين على مقربة من الشيخ ابي نعمان ، وهما يحكان منقاريهما بعضهما ببعض (ص١٩١) لا يمكن ان تلائم لسان حال شيخ عجوز ٠

على اننا مقابل هذه الملاحظات المحدودة ، نجد في الرواية عملا متكاملا منسجما يغلي بالحياة ، ويحقق تطابقا مدهشا بين زخمه الفني وحرارة جو المنطقة التي يصدر عنها ، بل انه يمكن القول دون حرج ان هذه الرواية استطاعت تقديم عدد من الشخصيات الفذة فنيا ، على الرغم من عفويتها البالغة ، وعلى الرغم من محدودية فرصها الاجتماعية والثقافية ٠ في طليعة هذه الشخصيات الشرطي عطوة ، وام حسن ، ومحمد ، وابو خليل ٠٠ وابو خليل بالذات يأخذ خصوصية عالية من خلال تقدمه كرمز (ولعه بالشجر والخضرة ، حتى ابنته اسمها ندى) ومن خلال اخلاصه للحياة بحيث يبدو فلذة فنية من لحم ودم طازجين ابدا ٠

على ان نجاح الرواية لا يقف عند حدود الشخصيات الفنية ، بل انه ينبع اولا من حجم المهمات التي اضطلعت بها ، فقد استطاع الكاتب ان يقدم ، اولا ، شهادة موثقة عن يوميات اريحا ـ والضفة كلها، بالتالي ـ سواء من خلال رصد شخصياتها الطريفة وغير الطريفة ، او من خلال احداثها ومؤشراتها الدقيقة ، كما استطاع ان يعطي ملاحظات ثمينة عن القوى والاحزاب والتجمعات ، سواء الوطنية كالشيوعيين والقوميين ، او المرتبطة كالماسونية او السلبية المحذوفة خارج دائرة الفعل كحلقات الدراويش ، واستطاع بالتالي ان يوفر لابطاله الاختيارات الوطنية الديمقراطية ، بحيث يدركون الثانوي والاساسي في الصراع ، ويعون متى يرقى التناقض الثانوي الى درجة التناقض الاساسي ، ومتى يتراجع مرحليا ٠

ان هذه الرواية هي الاولى من نوعها ـ على ما اعلم ـ من حيث اقتحام المخيمات وتصويرها بعيدا عن دموع ما قبل ١٩٦٥ وخطابات ما بعد ١٩٦٨ ، بل من خلال سير الحياة المتصاعد ، المنتكس احيانا ، ولكن المتصاعد غالبا ٠٠ وكون هذه الرواية تختط دورا رياديا لا يعني انها تطلب النظر اليها بالرفق الذي تؤخذ به ، عادة ، الاعمال الريادية ، بل هي عمل فني ناضج يبقى ، بعد الملاحظات الآنفة ، ناهضا متميزا بكل جدارة ٠ ٠

احمد دحبور